

الثقة

يظن الكثيرون أن الطفل يثق بأهله بمجرد أن هذه أمه وهذا أبوه، ويستغرب الآباء أن طفلهم ذا الثلاثة أعوام لا يثق بكلامهم، أو أن طفلهم في عمر المدرسة لا يحكي لهم عن يومه أو مشاكله، أو أن ابنهم الشاب لا يلجأ لهم للمشورة ولا يأتمنهم على سره.

تقول د. ماريا مونتيسوري: إن «الطفل يبني أركان شخصيته من الانطباعات الراسخة التي يتلقاها» وأن «النمو ليس مجرد زيادة متناغمة في الحجم، ولكنه تحول مستمر وانتقال من مرحلة إلى مرحلة» كما أكدت أن «عظمة شخصية الإنسان تبدأ في ساعة الولادة» وأن «طريقة تعاملنا مع الطفل سوف تؤتي ثمارها ليس فقط في الوقت الراهن، لكن في تكوين شخصياتهم في المستقبل حينما يصيرون كبارًا بالغين». أما في تفسيرها لعلاقة الحب بين الطفل وأمه فقالت: «عند التقاء غريزة الأمومة بالفترات الحساسة لدى الطفل حديث الولادة تنشأ علاقة حب واعٍ بين الأم والطفل».

معنى هذا الكلام:

- انطباعات الطفل عن أهله تحدد مستقبل تعامله معهم.

- نمو الطفل لا يحدث في خطوط مستقيمة ولكنه انتقال من مرحلة إلى مرحلة.
- الطفل حديث الولادة يشعر ويدرك.
- أن الحب والثقة ورباط الأبوة والبنوة أشياء تتكون مع الوقت والمواقف وتعامل الأهل مع مراحل الطفل الحساسة يحدد شكل العلاقة الحالية والمستقبلية بينهم.

كيف نطبق هذه النظريات فعلياً؟

أولاً، منذ ميلاد الطفل يجب أن يتعود الأهل على الإصغاء لطفلهم. هذا الكائن الصغير الباكي لا يعرف سبباً آخر للتواصل! يبكي حينما يحتاج أن يرضع أو ينام أو يغير حفاظته. يبكي ليعبر عن الألم أو الضيق أو الزهق! إنه يتواصل مع أهله فماذا هم فاعلون به؟ إجابة هذا السؤال تعد بمثابة حجر الأساس في علاقة الثقة بين الطفل والأهل.

هل سيستجيب الأهل لنداء طفلهم؟ هل سيجد الحزن والحنان والأمان؟ هل سيشعر بيد حانية تطمئنه؟ أم هل سيترك يبكي حتى ييأس؟ هل سيترك وحده حتى يفقد الثقة في الكبار العاملين على رعايته وخدمته؟ هل سيقابل بكأوه بصراخ وعصبية وعدم تحمل من قبل الأهل؟ ما هي الرسالة التي ترسلها لطفلك؟ «أنا هنا من أجلك، ويمكنك أن تعتمد على وجودي بجوارك دائماً» أو «حل مشاكلك بعيداً عني؟»

ثانياً، يمر الطفل في أول ثلاثة أعوام بمراحل عديدة تمثل نموه العقلي والعاطفي والجسدي. دور الأهل هنا هو مساعدة الطفل في العبور بسلام من مرحلة إلى أخرى بدون تدخل، بدون إبطائه أو استعجاله! نجد مثلاً أن الرضيع يعاني _ ويعاني كل من حوله _ لينام! هو يريد أن ينام والأهل يريدونه أن ينام لكنه لا يعرف كيف ينام! تبدأ رحلة المحاولات، تركه يبكي في سريره حتى ينام، إرضاعه أعشاباً طبية حتى ينام، تدليك جسده، حمام دافئ، غناء أغاني تساعد على النوم، الهزهزة، حملة والسير به، النوم أثناء الرضاعة على ثدي الأم، وغيرها من طرق مساعدة الطفل على النوم.

ليس لي أول «ماريا مونتيسوري» أو للأهل اختيار الطريقة، عليكم بالإصغاء إلى الرضيع، كيف يرتاح؟ ما هي الطريقة التي يفضلها؟ لا يهم هنا كم نحن مرهقون أو كم المهام التي يجب علينا إنجازها، المهم هو الطفل واحتياجاته.

ثالثاً، لا تتعجلوا في الانتقال بالطفل من مرحلة إلى مرحلة، بداية الطعام، الانتهاء من الرضاعة (الطعام)، استخدام المرحاض، النوم في غرفة مستقلة، النوم بدون مساعدة، والجلوس والوقوف والمشي، واللعب مع أطفال آخرين ومشاركة لعبه، كلها أشياء لن يتعلمها الطفل بالغضب أو القهر! عليكم بتقبل طفلكم كما هو واحترام قدراته واحتياجاته الفردية.

الانتقال من مرحلة إلى مرحلة يحتاج من الطفل نمواً جسدياً وعقلياً وعاطفياً وهذا النمو لا يستطيع الأهل التدخل فيه أو التعجيل به. دور الأهل لمساندة هذه المستويات من النمو هو توفير البيئة الصديقة التي تساعد الطفل على تحقيق ذاته. لا يهم أن ابن فلان أو بنت علان «سبق/ت» طفلكم في مرحلة من المراحل. لا تقعوا في فخ المقارنات!

رابعاً وأخيراً، لا تنتهزوا كل فرصة لتقديم محاضرة للطفل! الطفل لا يتعلم بالكلام، الطفل يمتص أفعالكم ويكررها! لا تقولوا له: «انظري وأنا أكل الخضراوات» بل دعوه يراكم تتناولون الخضراوات بشكل مستمر! تلك النبذة الواعظة سوف يتعود عليها الطفل، ومع الوقت سيغلق أذنيه كلما سمعها! لا تكذبوا على طفلكم ولا تخلفوا وعودكم له. لا تضنوا على طفلكم بالحضن أو القبلة كلما طلب، ولا تتعودوا على تجاهل بكائه أو احتياجاته. لكي تحضوا بثقة طفلكم اليوم وفي المستقبل، عليكم بالعمل على تغيير تصرفاتكم وألوياتكم واحتياجاتكم وأسلوب حياتكم كله، بدلاً من الوقوع في خطأ الكثيرين ممن عملوا على تغيير تصرفات وألويات واحتياجات طفلهم، فدخلوا في دائرة عدم الثقة وتبعاتها.